

سوسيولوجيا النص الروائي عند بيير زيمّا مفاهيم وآليات تحليل الرواية

الأستاذ رشيد وديجي

جامعة مولاي إسماعيل -المغرب-

ملخص:

ليس باستطاعة أحد التنكر للعلاقة الموجودة بين الأدب والمجتمع، وكل النظريات والمناهج النقدية تحاول إلقاء الضوء وإنارة زاوية من زوايا النص الأدبي، سواء تعلق الأمر بمنظور النص الداخلي والاهتمام بلاغة النص وتنظيمه الداخلي، أو الاهتمام بمرجعيات النص الخارجية، الاجتماعية، والتاريخية، ووظيفة الأدب، وطريقة توظيف ايديولوجيته. وبما أن سوسيولوجيا النص منهج واسع الروافد من الصعب تحديده، كان من الضروري في هذه الورقة البحثية التعرف على هذا المنهج بطريقة مفصلة عند أهم رواده أي التركيز على أبحاث بيير زيمّا من خلال الخلفيات النظرية والمنهجية التي استند إليها؛ وبطرحه مجموعة من المفاهيم النقدية الأساسية لمقاربة الرواية، وتفكيك بنيتها الفنية، والاجتماعية.

Abstarct:

No one can deny the relationship of literature and society, and all critical theories and methods try to illuminate and illuminate a corner of the literary text, whether it is the perspective of the internal text and interest in the text and internal organization, or attention to references external text, social, historical, And the method of employing his ideology. Since sociology of text is a broad approach, it is difficult to identify it, so it was necessary in this paper to identify this method in a detailed manner among its most important critics, namely the focus on Pierre Zema's research through the theoretical and methodological background on which he was based; Novel, and dismantling its technical and social structure.

مدخل:

لقد انطلق بيير زيمّا P.Zima في إرسائه لمنهجه السوسولوجي مستندا إلى آراء باحثين من جهة، ومنتقدا علم الاجتماع التجريبي لدى مدرسة بورديو التي حصرت اهتمامها في بعض العناصر الخارجية: مثل الجمهور، والكاتب، والنشر، وسوسولوجيا المضامين التي اهتمت بالوظيفة التعيينية للأدب، كأية وثيقة تاريخية، ولم تميّز بين المعنى الأدبي والمعنى في سائر الحقوق الأخرى: السياسية، والاجتماعية من جهة أخرى. ولهذا السبب يرى زيمّا أن مثل هذه التصورات لا تملك ما يبرر أهميتها بالنسبة للنقد الأدبي ما دامت لا تبحث عن القضايا التي تميز النص الروائي، فالمطلوب في هذه الحالة من الناقد، وهو يتعامل مع إنتاج أدبي، ألا يبقى بحثه محصورا في الإطار الضيق لعلم الاجتماع فقط، مثلما ينبغي ألا يبقى في حدود التعامل مع الإبداع في سكونيته.

من هذا المنطلق انتقد زيمّا أعمال فوجن Fugen، وسيلبرمان Silberman اللذين عملا على إلغاء المعايير الجمالية من مجال بحثهما، واهتما بالظروف الاجتماعية المحيطة بالعمل الأدبي فقط، باعتبار أن ذلك لا يدخل في اختصاصهما، وهو اتجاه نقيص للشكلانية التي اهتمت فقط بأدبية الأدب، وهو يعتبر أن إقصاء الجانب الجمالي للأدب إنما هو إبعاد للمعنى الاجتماعي ذاته، لأن هذا المعنى رهين بهذه القيم الجمالية ومرتبط بشكل وثيق بالكتابة ذاتها، إذ أن معنى الإبداع لا ينفصل عن الكتابة كممارسة اجتماعية.

ومن ثم فقد أكد على السؤال الذي ينبغي أن تطرحه سوسولوجيا النص الأدبي، ليس ماذا يقول الأدب؟ بل "كيف يقول النص على المستوى السردى التركيبي؟"¹، كما انتقد منهج غولدمان oldmannG القائل بالبنية الدالة La structure signifiante، الذي يختزل الأعمال الأدبية في معانٍ أحادية، بينما النص الأدبي يحمل "بنيات دلالية متعددة بتعدد القراءات، ولا تكف هذه البنى عن التناقض والتنافس"²، وطبعا هذه البنى ما هي إلا اللغات الاجتماعية المتصارعة داخل النص، والتي يمكن أن نحددها دلاليا وتركيبيا.

كما انتقد زيمّا مفهوم النمط عند لوكاتش Lukács، في مفهومه هذا كان يلغي كذلك قضية تعدد معاني النص، وقد استشهد زيمّا ببارت Barthes الذي يقول: "أن نؤول نصا ما ليس معناه أن نعطيه معنى ما، ولكن بالعكس أن نحدّد التعدّد الذي يشكله"³.

إن زيمّا "تأمل المناهج النقدية، وقرأها بطريقة واعية في ضوء القاعدة العامة التي انطلق منها، والتي يتم خلالها النظر إلى الأدبي والاجتماعي نظرة جدلية، والتعامل مع النص الروائي كتجربة جمالية وسوسولوجية في الآن نفسه"⁴.

إن فكرة تعددية معاني النص الأدبي عند زيمّا هي نفسها التي نصادفها عند باختين Bakhtine، فعلى الرغم من أن زيمّا يقول بأن هذه التعددية ناتجة عن تعدد القراءات، إلا أنه يتفق مع باختين كذلك عندما ينظر إلى هذا التعدد على مستوى لغوي، حيث كان زيمّا ينظر

إلى النص الروائي على أساس أنه لقاء لمجموعة من اللغات الاجتماعية المتصارعة فيما بينها، وهي فكرة تعود بنا إلى فكرة باختين حول التعدّد اللغوي. واستفاد كذلك زيمّا من مدرسة فرانكفورت في مسألة انفتاح النص على معانٍ متعددة، وبالأخص من أحد روادها وهو تيودور أدرونو TH. Adrono الذي أبرز أن ما يميز الإبداع هو الإيحاء، وهذه الخاصية تجعله مثله مثل اللغز؛ يقول أشياء ويخفي أشياء أخرى، الأمر الذي يستدعي التأويل، ويجعله نصاً منفتحاً على معانٍ ممكنة.

وقبل زيمّا اهتم ميشال زرافا M. Zeraffa بعلاقة الأدب بالمجتمع، وكيفية مظهر هذا الأخير على مستوى السرد، مؤكداً على أهمية المناهج والدراسات النقدية التي ركزت على اللغة مثل النظريات السردية، والشعرية، والنظريات السيميوطيقية، يقول زرافا: "إن سوسيوولوجية الأدب ذات مرجعية لسانية (بالمعنى الواسع للعبارة) تبين مبدئياً أنه يجب الانطلاق من الأشكال البسيطة (من الخطاب ومن النحو) إذا أردنا أن نحدد معنى (التعقيد الدلالي) لعمل⁵". وفي الإطار نفسه، يبين أهمية أعمال غيره من النقاد الذين حاولوا تأسيس نحو للخطاب أمثال تودوروف Todorov، كلود بريمون Claude Bremond، بارت.

دون إغفال أن زرافا أكد على أهمية نظرية غريماس حول علم الدلالة البنيوي في كشف البنية السردية للنص الروائي، من مستواه الدلالي حيث تبدو الدلالة هي المسؤول الأول عن البنية السردية التركيبية للنص. فهو يصرح بذلك قائلاً: "لقد كملت السيميولوجيا سوسيوولوجيا الأدب لكونها جعلت مفهوم الشكل يجمع بطريقة عضوية بين المدلولات الاجتماعية والدوال الأدبية⁶، وذلك عن طريق "تحديد العلاقة بين الوظائف العاملة Les fonctions actuelles لشخص تخیيل ما، والسمات الاجتماعية التي تحملها"⁷.

إذن، فتحديد البنية العاملة التي تحكم الرواية تسمح بدراسة الأحداث، والوقائع الاجتماعية، كأحداث خطابية: "يقتضي شرح البنية السردية، إذن، التحليل العملي L'analyse actantielle وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتحليل الدلالي. وهذا يعني في الممارسة الخطابية أن الاختيارات الدلالية (التصنيفات) التي تقوم بها ذات الخطاب ستظهر على المستوى العملي حيث أنها تحكم المسار السردية"⁸.

لا يكتفي زيمّا بنموذج غريماس Greimas (التحليل العملي) لكن يقرؤه انطلاقاً من مستوى سوسيوولوجي يعوض تجريدته، وذلك عبر البحث في مرحلة ثانية عن القيمة الإيديولوجية للعوامل، وذلك من أجل تحقيق نزوعه الذي يهدف إلى تأسيس علم علامة اجتماعي أو سيميوطيقا سوسيوولوجية.

يتبين، إذن، أن منهج زيمّا هو محاولة جادة للتركيب بين نظرية باختين، وضمنها كل النظريات التي اهتمت باللغة كأساس لدراسة المجتمع، ونظرية غريماس السيميوطيقية، ومن خلاله أيضاً معظم النقاد الذين كانوا يهدفون إلى تأسيس نحو الخطاب.

وانطلاقاً من هذه الخلفيات النظرية والمنهجية التي استند إليها زيمّا؛ طرح مجموعة من المفاهيم النقدية الأساسية لمقاربة الرواية، وتفكيك بنيتها الفنية، والاجتماعية. وهذا ما سنركز عليه في المحور الثاني من هذا البحث.

- مفاهيم زيمّا في مقاربة الرواية وتفكيك بنيتها:

1- الوضعية السوسيولسانية:

هي من أهم المفاهيم التي طرحها زيمّا في سوسيوولوجيا النص الأدبي من أجل مقاربة لغوية اجتماعية للنص الروائي، ولذلك نجده يقول: "مادامت المصالح الاجتماعية تظهر على مستوى لسانيّ (معجمي، وخطابي)، يجب تقديم النص الأدبي الذي نريد إدماجه في سياقه الاجتماعي أولاً في الإطار التاريخي للوضعية السوسيولسانية"⁹.

فلمقاربة النص الروائي سوسيوولوجياً ينبغي ربطه بالمرحلة التاريخية التي ظهر فيها، وما عرفته هذه المرحلة من تغيير، لأن كل جماعة اجتماعية يكون لها معجمها الخاص، وطريقة كلام تميزها، وبلاغة تجسد مصالحها، إذ أن لغة هذه الجماعة لا تتميز فقط على مستوى معجمي، ولكن على مستوى البنيات الكبرى كذلك.

والمتمثل في المفهوم السابق سيجده تكراراً لفكرة باختين التي أكد من خلالها أن كل تطور لغوي مشروط بالبنيات الاجتماعية، والاقتصادية، والتاريخية المتغيرة. وانطلاقاً من هذا المفهوم، أكد زيمّا أن كل دراسة سوسيوولوجية جادة "للبحث عن الزمن الضائع" مثلاً، لا بد أن تراعي ذلك التطور اللغوي إبان اللحظة التاريخية التي ظهرت فيها "الجمهورية الثالثة".

ففي إطار حديثه عن الوضعية السوسيولسانية التي ظهرت فيها رواية بروست هاته لاحظ أنها تزامنت مع الثورة البورجوازية 1930 التي انتهت بتتويج الملك louis philipe، الذي عرف الاقتصاد الليبرالي في عهده ازدهاراً كبيراً، وانتصرت فلسفة الفردانية، وفي ظل هذا الوضع خضعت كل مظاهر الحياة لقانون السوق، فحتى الألقاب خضعت لهذا القانون، حيث أصبحت تباع وتشتري، وأصبحت قيمة الفرد تقدر بما يملك من مال، واللغة نفسها لم تفلت من ذلك حيث "توجهت الكلمات نحو فعاليتها التجارية"¹⁰، وقد كان الإشهار كظاهرة لسانية منحرفة من التتجير Commercialisation الذي لحق مختلف مظاهر الحياة، شكلاً مناسباً لهذه المرحلة التاريخية.

2- اللغات الاجتماعية:

يرتبط هذا المفهوم بشكل وثيق بالمفهوم السابق، حيث نجد زيمّا يدعو إلى النظر إلى المجتمع في النص الروائي على أساس أنه يتشكل من مجموعة من اللغات الاجتماعية يمكن التحقق منها معجمياً، ودلالياً، وتركيبياً، ويقول في هذا الصدد: "يجب من أجل وضع علاقات بين النص وسياقه الاجتماعي، تقديم العالم الاجتماعي كمجموع لغات اجتماعية تظهر في البنى الدلالية والسردية للتخييل"¹¹.

ولعل المتأمل في مفهوم التعدد اللغوي الباختياني سيجد في عمقه تلخيصا لما سماه زبما باللغات الاجتماعية، حيث أن جميع الأشكال التي تحدث عنها باختين، والتي تشكل مفهوم التعدد اللغوي (الأسلبة، والتهجين، والباروديا، والحوارات الخالصة...)، تحدد العلاقة بين النص والمجتمع على أساس اللغة من جهة، وتنظر إلى النص الروائي على أساس أنه يتشكل من مجموعة من اللغات المتصارعة من جهة ثانية.

وانطلاقا من ذلك ولكي يفكك الوحدة الإيديولوجية للنص يوظف مفهوم اللهجة الاجتماعية Sociolinguistique الذي استعمله في كتابه "السيميوطيقا والعلوم الاجتماعية" الصادر بباريس سنة 1928، ويعدله، ويضيف عليه بعدا تاريخيا مثلما فعل مع باقي المفاهيم التي استفادها من الشكلائية، ومن البنيوية.

3- التطور الأدبي:

المفهوم الذي قال به جاكبسون Jacobson، وتينانوف Tinianov في دراستهما حول "مشاكل الدراسات الأدبية اللسانية" 1928 Problèmes des études littéraires et linguistiques، وركز اهتمامه بالخصوص على إحدى المفاهيم الأساسية التي بلورها الناقدان في هذه الدراسة، ويتعلق الأمر بمفهوم التطور الأدبي l'évolution littéraire، ومدى إسهامه في إغناء العلاقة بين المجتمع والنص، بين ما هو جمالي، وما هو اجتماعي من زاوية ما يطلق عليه زبما سوسيوولوجيا النص الأدبي، إذ "المعنى الأساسي لعمل أدبي ما لا يمكن أن يفهم خارج التطور الأدبي"¹²، أي تحديد وضعه الجمالي والاجتماعي في إطار علاقته بالأعمال والتقاليد الفنية السائدة، وعلاقة كل ذلك بالشروط الاقتصادية، والاجتماعية المحيطة. حيث لم يعد التطور الأدبي يعني تطور الأشكال في ذاتها، ولكن أصبح يعني أن تلك العلاقة الضرورية بين الأدب والمجتمع هي علاقة محايدة، وهو ما لم يفهمه الشكلائيون، ومن ثم ظل هؤلاء عاجزين عن تفسير الأسباب الحقيقية في ظهور أشكال فنية جديدة في لحظات تاريخية، وعدم ظهورها في ظروف أخرى.

وهذا ما تنبه إليه أدرونو Adrono في إطار مناقشته، وتمييزه بين بعدين في كل نص أدبي: استقلاليتها واجتماعيته، يقول زبما: "بخلاف المقاربات الوضعية (Bense) والماركسية (لوكاتش وغولدمان) والبنيوية (بارت وتودوروف) تفتح النظرية الأدورية إمكانية جدلية تجمع فيها مظاهر العمل الفني المتعارضة، استقلاليتها ومعناه الاجتماعي"¹³. إن استقلالية الفن عند أدرونو تكمن في قوله بأن الفن يتميز بالإيحاء، وبالرمز، في حين أن معناه الاجتماعي يكمن في صفته النقدية (الفن كمارسنة نقدية) تجاه المجتمع، وتعتبر مقولة جمالية النفي L'esthétique négative اختزالا لهذه الصفة السابقة الذكر: حيث يملك العمل الفني قدرة نافية تستطيع مقاومة الإيديولوجيات، وإظهار صفتها المزيفة، فليس المقصود تعريف الإيديولوجيا أو رؤية العالم التي من المفترض أن يعبر عنها العمل الفني، ولكن إظهار النفي والتمايز الملازمين للفن النقدي، وخاصة لفن الطليعة"¹⁴.

إن فن الطليعة كان يحقق وظيفته النافية هاته انطلاقاً من كتابة نصوص تجريبية جديدة متمرده على كل التقاليد، وأشكال الكتاب السائدة، وتتجلى هذه الوظيفة انطلاقاً من ابتعاده عن هذا الواقع، لا من خلال الاندماج فيه كما هو الشأن بالنسبة للكتابات الأخرى.

ومن ثم كانت مثلاً فكرة "غياب الحبكة" في أعمال بيكيت Beckett إلى افتقاد الإنسان لجوهره الحقيقي في هذا الواقع، كما كانت الجملة البسيطة الخالية من المحسنات البلاغية عند همنجواي Hemingway تسخر من التعقيد الذي يعرفه المجتمع الأمريكي.

4-التناص كمقولة اجتماعية:

لقد كان باختين من النقاد الأوائل الذين وضعوا الأسس الأولى لمفهوم التناص L'intertextualité، ووجهه نحو تجاوز مفهوم الاستقلالية الشكلاني، وقد توصل إلى وضع الأسس الأولى لهذا المفهوم انطلاقاً من تعريفه للملفوظ كحدث لا يمكن أن نفهمه بمعزل عن طبيعته الاجتماعية، وأنه يقتضي على الأقل، وجود متكلم ومستمع يساهمان في إنتاجه، وعموماً يمكن الوقوف عند شكلين من أشكال التناص عند باختين:

- تناص لغوي

- تناص يتحقق على مستوى تداخل الأجناس الأدبية وغير الأدبية.

فيما يخص الشكل الأول، جاءت صياغته انطلاقاً من تنظيرات باختين للملفوظ بصفة عامة، وعلاقته الوطيدة انطلاقاً بملفوظات الآخرين، وعندما قلنا بأن باختين كان مؤسساً للتناص اللغوي، رغم أن التناص ينتمي إلى الخطاب وليس إلى اللغة كما يرى تودوروف، كنا نعني بذلك العلاقة بين خطاب المتكلم وخطاب الغير. حيث تعتبر مقولة خطاب الغير "كقاعدة أساسية لتحقيق التناص على هذا المستوى، وهذا ما ذهب إليه تودوروف عندما اعتبر أن العلاقة التناصية: هي علاقة تنهض بين ملفوظين"¹⁵. وهذه العلاقة تتحقق على مستوى دلالي أساسي، ذلك أن المتكلم عندما يتوجه إلى الآخر فهو يتوجه إلى وجهة نظره، وإلى رؤياه للعالم بالدرجة الأولى.

أما الشكل الثاني من أشكال التناص عند باختين، وهو الذي سيهتم به زيمبا، فيتعلق بتناص الأجناس الأدبية وغير الأدبية. وقد تأتت له صياغة هذا المفهوم انطلاقاً من قوله بأن الرواية جنس غير مكتمل، منفتح دائماً على أجناس متعددة، وتجسد الرواية حسب باختين حالة خاصة في تحقيق ما ذهبنا إلى اعتباره تناصاً للأجناس، ذلك لأنها من أكثر الأجناس الأدبية تشخيصاً للحالة التناصية، انطلاقاً من استعدادها لإقحام كل أصناف الأجناس لتخلق منها لغتها الخاصة التي تقوم على التعدد اللغوي.

ونجد باختين يقترب من زيمبا كثيراً عندما يلاحظ بأن هذه النصوص (الأجناس المتخللة) يتخذها المبدع كوسيلة يعبر من خلالها عن الواقع، بل الأكثر من ذلك فهي الواقع ذاته، كل واحد من تلك الأجناس يملك أشكاله اللفظية والدلالية لتمثل مختلف مظاهر الواقع، كذلك فإن الرواية تلجأ إلى تلك الأجناس تدقيقاً على اعتبار أنها أشكال مشيدة من الواقع.

إن دور تلك الأجناس المتخللة "جد كبير لدرجة أن الرواية يمكن أن تبدو كأنها مجردة من إمكانياتها بواسطة أجناس تعبيرية أخرى، ما دامت الرواية نفسها لا تعدو كونها توحيدا تأليفيا من الدرجة الثانية لتلك الأجناس اللفظية الأولى"¹⁶. وبذلك يصبح النص مجالا لتقاطع مجموعة من النصوص، التي تصبح هي نفسها جزءا لا يتجزأ من الواقع، يستند إليها الكاتب لتشخيص الواقع وكشف أسرارها.

ولقد ظلت كريستيفا وفيه لطرح باختين الأخير عندما لاحظت أن "كل نص يبني كفسيفساء من الاستشهادات، كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر"¹⁷، وعلى هذا الأساس قرأت رواية Antoine de la salle كتقاطع لمجموعة من النصوص التي كانت تضطلع بأدوار سوسولوجية أحيانا.

إن ما كان يضفي على النظرية السيميائية منحى مرجعي هو التفاتها بالدرجة الأولى إلى مفهوم التناص، حيث يبني المجتمع ليس من الأفكار، ولكن من النصوص، وهذا ما أكده عبد الوهاب ترو إذ قال: "فالنظرية السيميائية لا تخلو من تفسير مرجعي ولكنه مختلف، حيث يمكن بناء الواقع دلاليا من خلال العودة إلى نصوص متعددة، يقودنا التفسير المرجعي إلى مفهوم التناص الذي سيتطابق معه تماما"¹⁸.

لقد شكل هذا التراكم سندا أساسيا لبيير زيمبا في فهمه، وبلورته لمفهوم التناص، لذلك نجده منذ الفصل الأول من كتابه "نحو سوسولوجيا للنص الأدبي" يلح على ضرورة الاهتمام بمسألة دخول النصوص الأدبية وغير الأدبية إلى الإبداع الروائي، مثله مثل كريستيفا وبختين، وهكذا فقد لاحظ أن امتصاص النص الروائي لمجموعة من النصوص والخطابات الأخرى خارج أدبية أو تقريرية مثل الخطاب الصحفي، والإشعاري، تعتبر من أكثر الأشكال الخطابية تعبيرا عن الواقع: "لأن العلاقة بين النصوص الأدبية وغير الأدبية، بين اللغة الإيحائية واللغة التقريرية هي في الوقت نفسه المجال الذي تندمج فيه البنية الاجتماعية بواسطة الخطاب."¹⁹

وهذه الفكرة تقودنا إلى فكرة باختين السابقة التي اعتبر فيها النصوص جزءا لا يتجزأ من الواقع، ولذلك يستند إليها الروائي في الكثير من الأحيان بل نجد زيمبا يعيد فكرة باختين تقريبا عندما يقول: "فالمؤلف كمبدع للنصوص، لا تهتمه المشاكل الاقتصادية أو النفسية مباشرة، فهو لا يكتب لا لعالم الاجتماع، ولا للمحلل النفسي، ولكنه يكتب بالنصوص، بواسطة لغة المجتمع"²⁰. وهذه النصوص ذات طبيعة إيديولوجية، وحين تدخل إلى النص المركز، فإن هذا الأخير يحدد موقفه منها عن طريق صهرها، وتحويلها، أو دمجها والاتفاق معها، يقول زيمبا في هذا السياق: "إن النصوص هي وقائع اجتماعية وإيديولوجية بقدر ما هي ردود فعل لنصوص أخرى، منطوقة أو مكتوبة بالقدر الذي تجسد قضايا ومصالح جماعية"²¹.

مفهوم التناص عند زيمبا يرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الوضعية السوسيولسانية، حيث يبدو النص " كملتقى لمجموعة من السوسيو-لهجات ولمجموعة من الخطابات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمصالح فئات اجتماعية محددة"²². ومن ثمّ عاد إلى مفهوم تفاعل الذوات Intersubjectivity الذي استبعده كريستيفا Kristeva، ليؤكّد على ربط الخطابات المتصارعة في النص بالذوات المتلفظة، لأنّ الإيديولوجيا ترتبط أساسا بهذه الذوات. وقد ميز بين شكلين من أشكال التناص: التناص الداخلي Intertextualité interne وهو قريب من تصور كريستيفا، وهذا الشكل لا يفهم إلا انطلاقا من التناص الخارجي Intertextualité externe وهو الشكل الثاني، ويتمّ خلاله ربط هذه النصوص والخطابات بمصالح فئات اجتماعية بعينها، ومن هذا المنطلق أيضا كان يدعو إلى قطع الصلة مع مفهوم التناص كما تصوره كريستيفا: " التحليل التناصي ليس له، إذن، أية علاقة بالدراسة الامبريقية للاستشهادات المحصورة في التساؤل حول معرفة أية نصوص شفوية أو مكتوبة يمكن أن نجدها في العالم الأدبي، كما أنه لا علاقة له بالمرّة بتحليل بلاغي يستهدف تقنيات الكاتب، إذ يجب أن يلقي الضوء على النص الأدبي في سياق حوار أي بالمقارنة مع الأشكال الخطابية التي يتفاعل عن طريق استيعابها، وتحويلها، ومحاكاتها الساخرة."²³

يتبن، إذن، أن مفهوم التناص من المفاهيم التي جسدت سوسيوولوجيا النص الأدبي، والمتمثلة أساسا، في النظر إلى النص كبنية لغوية واجتماعية في الآن نفسه، فمن خلاله استطاع زيمبا الرد على الشكلايين والبوطيقيين الذين نظروا إليه كتقنية بلاغية فقط، وعلى النقاد الإيديولوجيين، بحيث لم تعد مرجعية النص هي الواقع المادي المباشر، بل النصوص بالدرجة الأولى.

على سبيل التركيب:

يتبن، إذن، من خلال ما تقدم، أن المنهج السوسيوونصي حاول أن يعيد النظر جذريا في العلاقة التي تربط بين الأدب والمجتمع، متخذًا من اللغة جسرا أساسيا لتحقيق ذلك؛ فلم يعد الأدب، ومنه الرواية مرآة تعكس الواقع، ولكن أصبح الحديث في هذا المنهج، بالأحرى عن كيفية تشخيص الواقع تشخيصا لغويا وجماليًا وقد تحقق ذلك من خلال الاستناد إلى مجموعة من المرجعيات النقدية ذات المنحى السوسيوولوجي من جهة، وذات المنحى البنيوي أو السيميوطيقي من جهة ثانية.

وما يمكن ملاحظته كذلك، أن هناك تشابها بين طرح باختين، وطرح زيمبا النقديين، ففيما كان الأول مشغولا بالرواية الحوارية، وتعدد الإيديولوجيات في الرواية، ومسألة التركيب بين الشكلائية والماركسية، استند زيمبا إلى تصوره العام للغة، وإلى تنظيراته المختلفة، وأضاف إليها اجتهادات مدرسة فرانكفورت، وبراغ، واجتهادات النظريات السيميوطيقية المعاصرة وعلى رأسها سيميوطيقا غريماس، موجّها اهتمامه نحو الكيفية التي تظهر بها المصالح الاجتماعية في النص الروائي كبنى سردية كذلك، والبحث عن الأبعاد الاجتماعية للمعايير

الجمالية، مع التركيز على اللغات الاجتماعية، وكيفية امتصاصها من طرف الرواية. وربط ذلك كله بالواقع الخارجي، وهو الأمر الذي سمح لنا بالقول أن عمل زيمّا النقدي يشكل استمراراً طبيعياً لمجهودات باختين النظرية حول الرواية من جهة، ويسمح لنا من جهة ثانية بإدماج مفهوم التعدد اللغوي مع مفهوم اللغات الاجتماعية عند زيمّا، دون إغفال ما تقدمه نظرية غريماس خاصة في دراسة هذه اللغات.

فالرواية حسب باختين من أكثر الأجناس الأدبية انفلاتاً وزئبقية، أكبر من أي محاولة تريد تنميطها، وتقييدها بشكل نهائي ومكتمل، وهو الأمر الذي انتهى إليه زيمّا كذلك عندما قال عن منهجه بأنه لا يطمح إلى تأسيس سوسولوجيا نصية كونية، بل إنه نبّه فقط إلى الطريق التي يمكن أن تسير فيها.

ومن خلال مختلف المفاهيم التي تبنتها سوسولوجيا النص الأدبي، كما تبلورت على يد بيير زيمّا، وبالاطلاع على مجموع أفكاره بهذا الشأن؛ لخص الناقد المغربي سعيد يقطين مجالات اهتمام هذه السوسولوجيا في الآتي:

- الربط بين النص والبنية السوسيونصية التي أنتج في إطارها زمنياً لمعينة إنتاجيته أو عدمه.

- الربط بين النص والمجتمع كما يتجلى ذلك في تفاعل النص مع البنية النصية الكبرى والسوسيونصية من خلال النص ذاته، على اعتبار كون العلاقة بين هذه البنيات هي علاقات تفاعل وجدل: علاقات هدم أو بناء، علاقات صراع أو تعايش.

- إن النص والبنية النصية الكبرى والصغرى والبنيات الاجتماعية ليست منغلقة على ذاتها. فالتفاعل المسجل بينها جميعاً، كما يتجلى من خلال النص، نجده أيضاً في علاقاتها أيضاً مع بنيات أخرى خارجية (أجنبية) وعلى المستويات جميعاً، ويختلف دور هذا التفاعل مع هذه البنيات الخارجية باختلاف مراحل تطور المجتمع وبنياته السوسيونصية في تحولاتها.

- كل هذه التفاعلات بين البنيات في مختلف تجلياتها لا تتم إلا من خلال تفاعل الذات من خلال فعل مزدوج: الكتابة والقراءة، سواء كانت هذه الذات الكاتب أو ذات القارئ²⁴.

الهوامش:

1. Le sycamore, paris, 1985, p 61. P. ZIMA, Manuel de sociocritique, éd1

.Ibid, p 612

littérature et société , vers une sociologie de l'écriture, voir théorie de L P. ZIMA,33

la littérature présenté par kébidi varga. Picard, 1981, p 288.

4 عبد النبي قيدي، تشخيص اللغة والواقع في الرواية العربية، ص 96.

Michel Zérafra, Roman et société , presses universitaires de France , 1971, 5

p73.

- Ibid, p 75.6
- J. Dubois in Méthodes du texte, introduction aux études littéraires ouvrage 7 dirigé par : Maurice de la croix et fernand hallyn éd . Duculot Paris, 1987, p 289.
- P. ZIMA, Manuel de sociocritique, p 123.8
- 'ambivalence romanesque, éd . le sycomore, paris 1980, p 48.L P. ZIMA, 9
- 'ambivalence romanesque, p 47.L P. ZIMA, 10
- P. ZIMA, Manuel de sociocritique, p 125.11
- our une sociologie du texte littéraire, U. G éd, paris, 1978, p 226.P P. ZIMA, 12
- P. ZIMA, Manuel de sociocritique, p 63.13
- P. ZIMA, Manuel de sociocritique, p 63.14
- e principe dialogue , seuil, 1981, p 96.L T.Todorov, 15
- 16 ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، تر. محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 1987، ص ص 78-79.
- seuil , 1969, p 85..echerches pour une sémanalyse, éd R J .Kristeva, 17
- 18 عبد الوهاب ترو، تفسير وتطبيق مفهوم التناص في الخطاب النقدي المعاصر، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، ع 60-61، 1989، ص 76.
- our une sociologie du texte littéraire, p240 .P P. ZIMA, 19
- our une sociologie du texte littéraire, p223.P P. ZIMA, 20
- P. ZIMA, Manuel de sociocritique, p 38.21
- 22 عبد النبي قيدي، تشخيص اللغة والواقع في الرواية العربية، ص 115،
- .139 P. ZIMA, Manuel de sociocritique, p 23
- 24- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2006، ص 139.